و للروح ارتواء

تفريغ محاضرة

وقفات مع غزوة بدر

رواء الاثنين | د.هند القحطاني

١٤٤٥/٣/٢٤ هـ

"وقفات مع غزوة بدر"

بسم الله الرحمن الرحيم

إنّ الحمدَ لله نحمده، ونستعينه ونستهديه، ونعوذُ بالله من شرورِ أنفسنا، ومن سيّئاتِ أعمالنا، من يهدِه الله فلا مُضِلَّ له، ومن يضللْ فلا هاديَ له، وأشهد أن لا إلهَ إلا الله وأنّ مُحمّدًا عبده ورسوله.

أمّا بعد..

دعونا نرجعْ إلى مكّة في السّنة الرّابعة لبعثة النّبي ﷺ، فبعد أنْ كُلّفَ النّبيُّ ﷺ بالدّعوةِ، وقعتْ بينه وبين قريشٍ عدّة مواقف؛ أحدها:

"ما رواه البخاري عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه حَدَّثَهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يُصَلِّي عِنْدَ البَيْتِ، وَأَبُو جَهْلٍ وَأَصْحَابٌ لَهُ جُلُوسٌ، إِذْ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: أَيُّكُمْ يَجِيءُ بِسَلَى جَزُورِ بَنِي فُلَانٍ [السلى: اللفافة التي يكون فيها ابن الحيوان في البطن، يقابلها المشيمة عند الإنسان، والجزور: الناقة] ،فَيَضَعُهُ عَلَى ظَهْرِ مُحَمَّدٍ إِذَا سَجَدَ؟ فَانْبَعَثَ أَشْقَى القَوْمِ فَجَاءَ بِهِ، فَنَظَرَ حَتَّى سَجَدَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَضَعَهُ عَلَى ظَهْرِهِ بَيْنَ كَتِفَيْهِ، وَأَنَا أَنْظُرُ لَا أُغْنِي شَيْئًا، لَوْ كَانَ لِي مَنَعَةٌ [أي: قبيلة تدافع عني]، قَالَ: فَجَعَلُوا يَضْحَكُونَ وَيُحِيلُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَاجِدٌ لَا يَرْفَعُ رَأْسَهُ، حَتَّى جَاءَتْهُ فَاطِمَةُ، فَطَرَحَتْ عَنْ ظَهْرِهِ، فَرَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَأْسَهُ ثُمَّ قَالَ: "اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِقُرَيْشٍ". ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَشَقَّ عَلَيْهِمْ إِذْ دَعَا عَلَيْهِمْ، قَالَ: وَكَانُوا يُرَوْنَ أَنَّ الدَّعْوَةَ فِي ذَلِكَ البَلَدِ مُسْتَجَابَةٌ، ثُمَّ سَمَّى: "اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِأَبِي جَهْلٍ، وَعَلَيْكَ بِعُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ، وَشَيْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ، وَالوَلِيدِ بْنِ عُتْبَةَ، وَأُمَيَّةَ بْنِ خَلَفٍ، وَعُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ"، وَعَدَّ السَّابِعَ فَلَمْ يَحْفَظْ، قَالَ [أي ابن مسعود] :فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَقَدْ رَأَيْتُ الَّذِينَ عَدَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَرْعَى، فِي القَلِيبِ [أي: بئر بدر] ."[1]

[1] رواه البخاري في صحيحه.

- **نبذةٌ تعريفيّةٌ حولَ غزوةِ بدر:**

بعد هجرةِ النّبيّ ﷺ وأصحابِه من مكّةَ إلى يثرب، كان المشركون قد سرقوا بيوت المهاجرين وأرزاقهم، وفي السّنة الثّانية للهجرة بدأ المسلمون يغِيرون على قوافلِ قريش لاسترداد بعضٍ من أموالهم، كما كانوا يهدِفون -من ذلك- كسرَ شوكة القرشيين، فكان أنْ وقعتْ اشتباكاتٌ عَرَضيّةٌ بين كرٍّ وفرٍّ… وفي يومٍ من الأيّام كان النّبيُّ ﷺ في المدينة فجاءته أنباءٌ مَفادُها أنَّ هناك عِيرًا عظيمةً تتبعُ لقريش، ويقودها أبو سفيان ستأتي من الشّام وستمضي إلى مكّة، ويقوم على حراستها ثلاثون إلى أربعين رجلًا، وفيها أكثر من (٥٠) ألفَ درهمٍ من الذّهب، وقد عرف النّبيّ ﷺ أنّ وصولَ هذا المال إلى قريش سيقوّي شوكتَهم أكثرَ، فعن أنس بن مالك قال:"…فَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَتَكَلَّمَ، فَقَالَ: "إِنَّ لَنَا طَلِبَةً، فَمَنْ كَانَ ظَهْرُهُ حَاضِرًا فَلْيَرْكَبْ مَعَنَا»، فَجَعَلَ رِجَالٌ يَسْتَأْذِنُونَهُ فِي ظُهْرَانِهِمْ فِي عُلْوِ الْمَدِينَةِ، فَقَالَ: "لَا، إِلَّا مَنْ كَانَ ظَهْرُهُ حَاضِرًا»، فَانْطَلَقَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابُهُ حَتَّى سَبَقُوا الْمُشْرِكِينَ إِلَى بَدْرٍ…"[٢].

فخرجَ النّبيُّ ﷺ مع (٣٠٠) رجلٍ، وبسلاحٍ خفيفٍ، لأنّ الأنباءَ تقول أن هذه القافلةَ فيها ألفُ بعير، ويحرسُها قرابةُ (٥٠) رجلًا، لأنهم لم يكونوا يعلمون أو يخطّطون لمعركة، فاتّجهوا إلى (بئرِ بدر)؛ لأنّها تقعُ بموقعٍ استراتيجيٍّ بين مكّةَ والمدينةِ المنوّرة، ووصلتِ الأخبارُ إلى أبي سفيان قائدِ القافلة بأنّ مُحمّدًا قد خرج بأصحابه ينتظرون القافلة، فما كان من أبي سفيان إلّا أنْ أرسلَ (ضمضم بن عمرو الغفالي) يستنفرُ أهلَ قريش، وغيّرَ طريق القافلة، واتّجه إلى ساحل البحر، ولقد جاءهم (ضمضم) بصورةٍ مثيرةٍ جدًّا، يتأثّر بها كلُّ من رآها أو سمع بها؛ إذْ جاءهم وقد حَوَّلَ رحْلَه، وجَدَعَ أنفَ بعيره، وشقَّ قميصَه من قُبُلٍ، ونادى بأعلى صوته: "اللّطيمةَ اللطيمة! أموالُكم مع أبي سفيان، قد عرضَ لها محمّدٌ وأصحابُه، لا أرى أنْ تُدرِكوها، الغوثَ الغوث!".

وعندما أمِن أبو سفيان على سلامةِ القافلة، أرسلَ إلى زعماء قريشٍ يطمئنُهم، ويطلب منهم العودة، لكنّهم انقسموا بين مُعارضٍ، وبين مُؤَيّدٍ لإكمالِ الطّريق والإصرار على التّقدّمِ نحو بدرٍ؛ لتأديبِ المسلمين، وتأمينِ طريق التّجارة القُرشيّة، وإخبارِ بقيّةِ القبائلِ بمدى قوّةِ قريشٍ وسلطانها، ومنهم أبو جهلٍ، الذي قال: "واللهِ لا نرجعُ حتّى لا يجترِئَ محمّدٌ علينا مرّةً أخرى، واللهِ لنأتِ فلنبيتَنَّ فيها ثلاثَ ليالٍ، ولْنضربْ بالدُّفوفِ، ولْنشربِ الخمرَ، ولْتعزفِ القيانُ، ولْيتسامعِ العربُ فينا أنّنا فعلنا هذا".

---

[٢] أخرجه مسلم في صحيحه.

فانشقَّ بنو زُهرة بأمرٍ من رئيسهم (أنس بن شريق)، ورجع (٣٠٠) نفرٍ من قومه إلى مكة، وكان بنو عَدِيٍّ قد تخلّفوا بالأصل، حيث جاءَ كبيرُهم (عتبة بن ربيعة) إلى أبي جهل وإلى حكيم بن حزام وقال لهما: علامَ نقاتل؟ قوافلُنا ورجعت إلينا، وعلامَ ننظر إلى محمّد صلى الله عليه وسلم وأصحابه وما فيهم إلّا رجلٌ نكره قتله؟ فادعوا محمّدًا والعرب، فإنْ قتلوه كان منكم الذي تحبّون، وإنْ ظهرَ عليكم وكان الذي يُحِبُّ كان محمدٌ صادقًا، فردّ عليه أبو جهل: "ما أراكَ إلّا قد انتفخَ سَحَرُك، وخِفتَ وجبنتَ"، فاستثارَ عتبةُ وقال: "أنا الذي أجبنُ وأنا الذي أخاف؟ لأرينَّك".

كما أنّ أبا لهبٍ كان ممّن بقوا في مكّة؛ خوفًا على نفسه، أمّا غالبيّةُ أحلافِ قريشٍ فقد تقدّمت حتّى وصلتْ بدرًا، فمضَوا -نحو بدرٍ- بحمولةٍ ومؤونةٍ متكاملةٍ -كان قد تكفّلَ بها تسعةٌ من أشراف قريشٍ- تزيد عن ألفٍ و(٣٠٠) مقاتلٍ، و(٢٠٠) فرسٍ، و(١٠٠٠) بعيرٍ.

وصلتِ الأخبارُ للنّبيِّ ﷺ أنّ أبا سفيان أفلتَ بالقافلة، وأنَّ قريشًا قد خرجت بكلِّ ثقَلِها وجاهزيّتها، والمسلمون (٣١٩) مقاتلٍ، بلا سلاحٍ، وبلا خيلٍ، فلم يكن معهم إلّا فارسان؛ (الزّبير والمقداد)، و(٧٠) بعيرًا، وبلا أدنى أنواعِ الاستعداد الحربيّ، فانتبهْ -أيُّها القارئ- إلى الفوارقِ وعدم التكافؤِ العسكريّ بينهما.

فما كان من النّبيّ ﷺ إلّا أنْ اجتمعَ مع أصحابه للتّشاور، وقال: "أشيروا عليّ أيها الناس"، فقال أبو بكرٍ: "يا رسول الله امضِ ونحن معك"، ثم قال ﷺ: "أشيروا عليّ أيّها النّاس"، فقال عمر بن الخطاب: "يا رسول الله امضِ ونحن معك"، فسكت النّبيّ ﷺ ثم قال: "أشيروا عليّ أيها الناس"، فقام المقدادُ بن الأسود وأعلن استعدادَ الصّحابةِ للقتال.

وشاهدُ ذلك ما ورد في الحديث الشريف: عَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ، قَالَ: "سَمِعْتُ ابْنَ مَسْعُودٍ، يَقُولُ: شَهِدْتُ مِنَ المِقْدَادِ بْنِ الأَسْوَدِ مَشْهَدًا، لَأَنْ أَكُونَ صَاحِبَهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا عُدِلَ بِهِ، أَتَى النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ يَدْعُو عَلَى المُشْرِكِينَ، فَقَالَ: لَا نَقُولُ كَمَا قَالَ قَوْمُ مُوسَى: اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا، وَلَكِنَّا نُقَاتِلُ عَنْ يَمِينِكَ، وَعَنْ شِمَالِكَ، وَبَيْنَ يَدَيْكَ وَخَلْفَكَ، فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ أَشْرَقَ وَجْهُهُ وَسَرَّهُ"[٣].

---

[٣] أخرجه البخاري في صحيحه.

وعاد الرّسول ﷺ ثم قال: "أشيروا عليّ أيها الناس"، وكان إنّما يقصد الأنصارَ لأنّهم غالبيّةُ جنده، لقلّةِ عدد المهاجرين آنذاك حيث بلغوا ثمانين فقط، وقد أدرك الصّحابيُّ (سعدُ بنُ معاذٍ) مقصدَ النّبيّ ﷺ، فتكلّمَ باسم جميع الأنصار كلامًا أسرَّ رسول الله ﷺ:

فعنْ أَنَسٍ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ شَاوَرَ حِينَ بَلَغَهُ إِقْبَالُ أَبِي سُفْيَانَ، قَالَ: "فَتَكَلَّمَ أَبُو بَكْرٍ، فَأَعْرَضَ عَنْهُ، ثُمَّ تَكَلَّمَ عُمَرُ، فَأَعْرَضَ عَنْهُ، فَقَامَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ، فَقَالَ: إِيَّانَا تُرِيدُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ أَمَرْتَنَا أَنْ نُخِيضَهَا الْبَحْرَ لَأَخَضْنَاهَا، وَلَوْ أَمَرْتَنَا أَنْ نَضْرِبَ أَكْبَادَهَا إِلَى بَرْكِ الْغِمَادِ لَفَعَلْنَا، قَالَ: فَنَدَبَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النَّاسَ، فَانْطَلَقُوا حَتَّى نَزَلُوا بَدْرًا، وَوَرَدَتْ عَلَيْهِمْ رَوَايَا قُرَيْشٍ"[٤].

وبدأ النّبيّ ﷺ في تلك اللّيلة يجهّزُ الصّفوف، ويشيرُ لصحابته: هذا مصرعُ فلانٍ وهذا مصرعُ أبي جهلٍ وهذا مصرعُ عتبةَ بنَ ربيعة وهذا شيبةَ بنْ ربيعة...

فعن عمرَ بْنُ الْخَطَّابِ، قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ نَظَرَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَهُمْ أَلْفٌ، وَأَصْحَابُهُ ثَلَاثُ مِائَةٍ وَتِسْعَةَ عَشَرَ رَجُلًا، فَاسْتَقْبَلَ نَبِيُّ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْقِبْلَةَ، ثُمَّ مَدَّ يَدَيْهِ، فَجَعَلَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ: «اللهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي، اللهُمَّ آتِ مَا وَعَدْتَنِي، اللهُمَّ إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةَ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ لَا تُعْبَدْ فِي الْأَرْضِ»، فَمَا زَالَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ، مَادًّا يَدَيْهِ مُسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةِ، حَتَّى سَقَطَ رِدَاؤُهُ عَنْ مَنْكِبَيْهِ، فَأَتَاهُ أَبُو بَكْرٍ فَأَخَذَ رِدَاءَهُ، فَأَلْقَاهُ عَلَى مَنْكِبَيْهِ، ثُمَّ الْتَزَمَهُ مِنْ وَرَائِهِ، وَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللهِ، كَفَاكَ مُنَاشَدَتُكَ رَبَّكَ، فَإِنَّهُ سَيُنْجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ..."[٥].

فالنّبيُّ خائفٌ؛ لأنّه لا يعلمُ الغيبَ ولا كيفيّةَ تسييرِ الأمور في الكون من قِبَل الله تعالى، لا يدري هل ينتظره ابتلاءٌ كأصحابِ الأخدود؟ هل سيُقتَلون جميعًا؟ هل سينتصرون؟ أم سيُبتَلون بالهزيمة؟

بدأتْ معركةُ بدرٍ في (١٧ رمضان، ٢ هـ)، بخروجِ عتبةَ وأخيهِ وابنِه للمبارزة، فقُتلوا ثلاثتُهم، وبالفعل الثلاثةُ قُتلوا في أوّل معركةٍ وفي أوّل مبارزةٍ، واشتعلتِ المعركة، وانتصرَ المسلمون نصرًا مؤزّرًا، ففي ليلةِ المعركة أنزلَ اللّه تعالى المطر، وجعله سببًا لهزيمة الكفّار، حيث أُثقِلوا بعُدّتِهم وعتادِهم في الطّين، وأصبحتْ حركتُهم صعبةً، أمّا المسلمون فثبّتتِ الأرضُ وتماسكتْ تحت أقدامهم؛ لأنّهم كانوا خِفافًا، فضلًا عن اندفاعِهم الشديدِ نحو الموت في سبيل الله، بالإضافة إلى الملائكة التي شاركتهم القتال.

انتهتِ المعركةُ بموتِ الكثيرِ من صناديدِ الكفر، مثلُ: أبي جهل، وعُتبة، وشَيبة بن ربيعة، وأميّة بن خلف، وعُقبة، وابن معيض...

---

[٤] أخرجه مسلم في صحيحه.

[٥] أخرجه مسلم في صحيحه.

أمّا الصحابةُ المشاركون في بدر -رضوانُ الله عليهم- فقد عُدّوا بمشاركتهم من أعظمِ الصّحابة على الإطلاق، فإذا أرادَ أحدٌ مدحَ أحدِهم يقول: شَهِدَ بدرًا، مع أنّ للمسلمينَ معاركَ كثيرةً، ولها من الفضل العظيم ما لها، لكنّ الفضلَ الأعظمَ كان خاصًّا ببدرٍ.

❖ وقفَاتٌ مع غزوةِ بدر:

▪ الوقفةُ الأولى: الفُرقان:

سمّى الله عزّ وجلّ معركةَ بدرٍ بـ (يومُ الفرقان)، هذا اليومُ العظيمُ الذي التقى فيه الجمعان لأوّلِ مرّةٍ، وبلا ميعادٍ واستعدادٍ مُسبَقين من كليهما، إنّه يومٌ أراده الحقُّ سبحانَه وتعالى هكذا، وقد سمّاه بذلك؛ لأنّ ما قبله ليس كما بعده، فقد فرّقَ اللهُ تعالى فيه بين الحقِّ والباطلِ.

▪ الوقفةُ الثّانيةُ: أهلُ بدرٍ من صَفوة الخلقِ:

كان في هذا اليوم شرفُ البدايات، وشرفُ التّأسيس، ويعظُمُ الشيءُ عند مجيئه في ذروةِ حاجتِه، وأوجِ أهميَّتِه، ولذلك فإنّ اللهَ عزّ وجلّ اصطفى أهلَ بدرٍ ليكونوا الأشخاصَ المناسِبين في الوقتِ والظرفِ المناسبَين.

وقد ذكرَ اللهُ تعالى في كتابِهِ العزيزِ الفرقَ بين ما قبل وما بعد فتحِ مكّة، يقول جلّ مِن قائل: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ۚ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (الحديد: ١٠).

وهذه إشارةٌ إلى رِفعةِ منزلةِ الذين جاهدوا وهم قِلّةٌ مُستضعَفةٌ، قليلو السّلاح والمُؤَن.

ففي وقتِ الضّيق تظهرُ معادنُ النّاسِ النّفيسة، ومن هؤلاء سعدُ بنُ معاذ -رضي الله عنه- الذي تكلّمَ باسم الأنصارِ جميعِهم -كما أسلفتُ- كلامًا اهتزّ له عرشُ الرّحمن، مع أنّه كان حديثَ عهدٍ بالإسلام إذ لم يمرَّ على إسلامِه إلّا خمسُ سنواتٍ، وحضرَ جنازتَه ما يقارب سبعونَ ألفًا.

ولذلك فإنّ فئة المنافقينَ لم تظهرْ في مرحلةِ ما قبلَ الفتح؛ لأنّهم دخلوا الإسلامَ خوفًا على أنفسهم عندما ازدادتْ قوّةُ المسلمين وازدادَ عددُهم.

قال النّبيّ ﷺ: "سبقَ درهمٌ مائةَ ألفِ درهمٍ... رجلٌ له درهمانِ أخذَ أحدَهما فتصدَّقَ به، ورجلٌ له مالٌ كثيرٌ فأخذَ من عرضِه مائةَ ألفٍ فتصدّقَ بها "[6].

فالفرقُ واضحٌ بين من تصدّقَ وقدّمَ نصفَ مالِه، ومن قدّمَ سيلًا من فيضٍ، فالأوّلُ ضحّى بما يملك، أما الأخير فلم توجعه الصّدقة.

وتظهرُ عَظَمَةُ يومِ بدر -أيضًا- بالموازينِ الدّنيويّة التي قُلِبت، فكلُّ المؤشراتِ العسكريّةِ والواقعيّةِ كانت توحي بهزيمةِ المسلمين، إلّا أنّ مجاهدي بدرٍ قاتلوا بقلوبٍ ممتلئةٍ بالإيمانِ لا بعُدّةٍ وعدد، وحافظوا على رَباطةِ جأشِهم، وتيقّنوا بنصرِ الله عزّ وجلّ المؤزّرِ لهم، ومِن هذا المبدأ كان عمرُ بنُ الخطّاب -رضي الله عنه- يوصي الجيوش دائمًا، فيقول: "إنّكمْ لا تقاتلونَ بعددِكم، ولا بعدّتِكم، وإنّما تقاتلونَ بالإيمانِ الذي في قلوبِكم"، وفي هذا درسٌ عظيمٌ لكلِّ ذي عقلٍ في ضرورةِ تربيةِ النّفسِ على الإيمانِ باللّهِ تعالى وحدَه.

- <u>الوقفةُ الثّالثة: رايةُ الله لا تُنكّس:</u>

تُمثِّلُ معركةُ بدرٍ فرقَين يشكّلانِ محورَ الحياةِ إلى يومنا الحاضر:

١- <u>إبليسُ وأتباعُه المشركون:</u>

وهؤلاءِ فريقٌ في السّعير، ففي معركةِ بدرٍ تدخّلَ إبليسُ حرصًا منه على إتمامِ توجّه القرشيّين لقتالِ المسلمين، فقد خافَ أن يتراجعَ القرشيّون عندما وقع بينهم جدالٌ بين مؤيّدٍ ومعارضٍ للمعركة، فقد كانوا يخشون بني بكر أن يباغتوهم من خلفهم، فتلبّسَ إبليس بهيئةِ سُراقةَ بنَ مالكِ الجعشمي -سيّدُ بني بكر- وقال للقرشيّين إنّي جارٌ لكم، وهذا ما شجّعَ قريش وجعلَها تعزم على التوجّه للقتال.

[6] أخرجه النّسائي في سننه، وحسّنه الألباني.

فذهب إبليسُ معهم إلى آخرِ المطاف، وعندما بدأتِ المعركة ورأى إبليسُ الملائكةَ ومددَ السماء تولّى مُدبرًا، فأرادوا أن يُمسكوه، وسألوه: إلى أين؟ فقال: إنّي أرى ما لا ترَون، إنّي أرى ما لا ترَون، إنّي أخاف الله ربَّ العالمين، وذهب فغطّ بالبحر، فظنوا أنّ سراقةَ قد مات.

٢- جبريلُ -عليه السّلام- والرّسول ﷺ والمسلمون:

وهؤلاءِ فريقٌ في الجنّة، فقد تدخّلَ الله ُعزّ وجلّ مع هذا الفريق في معركةِ بدرٍ، ومَنْ كان الله ُمعه فمَن عليه؟ وإنّ رايةَ هذا الفريقِ ستبقى مرفوعةً إلى يوم الدّين.

قال تعالى في نصرتِه أهلَ بدرٍ: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ (الأنفال: ١٢).

فيومَ القيامة لا يوجد أيُّ مكانٍ في المنتصف، إمّا أن تكونَ من أهلِ الجنّة، وإمّا أن تكونَ من أهلِ النّار، فلا توجد أيُّ منزلةٍ بين المنزلتين، حتّى أهلُ الأعراف يحكمُ الله عزّ وجلّ فيهم فيذهبون، إمّا إلى الجنّةِ أو إلى النّار، حسبَ الأعمالِ التي كانوا يعملونها في الدّنيا، مع حتميّةِ تفضيلِ الله تعالى لداخلي الجنّة إضافةً إلى تلك الأعمال.

وأنتَ اسألْ نفسَك: بأيّ صفٍّ ستكون؟ ومع أيِّ فريقٍ؟ وتحت أيّ رايةٍ؟

فإذا أردتَ أن تكونَ ضمنَ الفريق الذي يدعمه الله تعالى فيجب أن تسلكَ مسارَهُ، وأن تؤمنَ به، والإيمان الحقيقيُّ يكون بالتّحلّي لا بالتّمنّي، وهو ما وقرَ في القلب، وصدّقهُ العمل.

- الوقفةُ الرّابعةُ: لا تظلمْ فتهلَكْ:

كان العقلُ الواعي في قريش يتمثّلُ بأبي سفيان، إذ ارتأى أنْ يرجعَ المقاتلون إلى مكّة، ويلغوا فكرةَ الحرب، بعد تأمينِ القافلة.

أمّا الظُّلمُ والتجبّر فيعميان صاحبَهما، ويُوْدِيَانِ به إلى التّهلكة، وخيرُ مثالٍ على ذلك أبو جهل؛ الذي أراد أن يبطشَ ويقتلَ ويطغى على الرَّغم من تأمينِ القافلة، والذي قال مقولته الشّهيرة: "واللهِ لا نرجعُ حتّى لا يجترِئُ محمّدٌ علينا مرّةً أخرى، واللهِ لَنأتِ فلنبيتَنَّ فيها ثلاثَ ليالٍ، ولْنضربْ بالدّفوف، ولْنشربِ الخمر، ولْتعزفِ القيان، ولْيتسامعِ العربُ فينا أنّنا فعلنا هذا".

فهؤلاءِ الظُّلّامُ كانوا يريدون أن يسحقوا المسلمين ظنًّا منهم أنّهم فئةٌ قليلةٌ مُستضعفةٌ يسهُلُ القضاءُ عليها، وارتأَوا أنّ الفرصةَ مواتيةٌ للانقضاضِ عليهم، لاستعظامهم قوّةَ القرشيّين وعددِهم والفوارقِ العسكريّة بينهم، وبالتّأكيدِ فإنّ العقلَ الظالمَ المتجبّرَ يسوقُ صاحبَه إلى اتخاذِ قراراتٍ خاطئةٍ، وبالتّالي إلى الهزيمة المحتّمة، وهذا من استدراجِ اللهِ القويِّ لأهلِ الباطل، وإنّه لَمِنَ الجهلِ بمكانٍ أنْ يغفلَ الإنسانُ عن القوّةِ العظمى بالكون، قوّةِ الله الجبّار. مع العلمِ أنهم كانوا يعلمون صدق محمّدٍ ﷺ، لأنّهم عاشروه عمرًا قبل البعثة، وكانوا يسمّونه الصادقَ الأمين، لكنّهم -ومع كلِّ ذلك التّصديق- ظلموا وجَحَدوا، وهكذا دأْبُ الطُّغاة في كلِّ زمان، فقد قال الله تعالى عن فرعون في مثل هذه الصّفة: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ﴾ (النّمل: ١٤).

ودليلٌ آخرُ على أنّ سببَ كفرِهم بالإسلام ليس عدمُ قناعتهم به، بل تجبّرًا وتكبّرًا: ما قاله أبو جهل: " كنّا نحن وبني هاشم - وهم قوم الرّسول ﷺ- على فرسَي رهانٍ، سقَوا وسقينا، وأطعموا وأطعمنا، فالآن يقولون إنّ منهم نبيًّا، فأنّى لنا؟ "، يقصد: نحن وبنو هاشم كنّا على سواء، واليوم يقولون إنّ فيهم نبيًّا، ونحن من أين نأتي بنبيٍّ لكي تستمر المساواة بيننا؟

فكانت القضيّةُ قضيّةَ استكبارٍ وتعالٍ، لا قضيّةَ عدم اقتناعٍ بصدق محمّدٍ ﷺ ورسالته.

وعندما رأى النّبيّ ﷺ أنّ الفئتين قد اصطفّتا، وشاهدَ الفرقُ الشاسعُ بين الصفّين، دعا أنْ تتمَّ هزيمتهم بنفس اليوم، قال :"اللهمَّ هذه قريشٌ قد أقبلت بخيلائها وفخرها تُحادّك وتكذّب رسولك، اللّهم فنصرُك الذي وعدتني، اللّهم نصرك الذي وعدتني اللّهم أحنهم الغداة ".

وجّه الله عزّ وجلّ إلى الكفّار بعد هزيمتهم في بدر رسالةً في كتابه العظيم: إنْ تطلبوا من الله أنْ يوقِعَ عذابَه على الظّالمين فقد أجابَ دعاءَكم حين أوقعَ بكم من عقابه ما كان في بدرٍ، فإنْ تنتهوا -أيُّها الكفّار- عن الكفر بالله ورسوله، وقتالِ نبيّه ﷺ فهو خيرٌ لكم في دنياكم وأخراكم، وإنْ تعودوا لقتال النّبيّ ﷺ والمسلمين نَعُدْ لقتالكم وهزيمتكم كما فعلنا في بدرٍ، ولن تغنيَ عنكم جماعتُكم وكثرةُ عددِكم وعُدّتُكم كما لم تُغنِ عنكم في بدرٍ، يقول عزّ وجلّ: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُوا نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الأنفال: ١٩).

- الوقفةُ الخامسةُ: وأمرُهم شُورى بينهم:

من أهمِّ الدّروسِ التي علّمنا إيّاها رسول الله ﷺ التّشاورُ وعدمُ التّفرّدِ في الأمر، فالتّشاورُ يجعل أصحابَه متكاتفين، والتخلّي عنه يجعلهم فِرَقًا مُشتّتةً، وعليه يصبحون عُرضةً للهزيمةِ والسّقوطِ مقابل أيِّ عدوّ، فالذّئب لا يأكلُ من الأغنامِ إلّا القاصية.

ولعلّ هذه مشكلةُ هذا الجيل الذي كثيرًا ما يغترُّ بنفسه، ويعتقد أنّه يمتلكُ الرّأيَ الصّائب دومًا، لذلك فلتكنْ لكَ في رسولك العظيم ﷺ أسوةٌ حسنةٌ، وتعلّمْ منه، فإذا كان رسولُك ﷺ نفسُه قد استشار أصحابَه ولم يتعصّب لرأيه، مع أنّه نبيّ الله ومُؤيّدٌ بالوحي، ويتّصف بالحكمةِ ورجاحةِ العقل، فلم يقلْ أنا رسول الله ورأيي هو الصّواب، وعليكم التّنفيذ دون اعتراض، بل جلس وأطالَ مجلسَه، وهو يقول: "أشيروا عليّ أيُّها النّاس"، وكلّما أشارَ عليه أحدٌ برأيه عادَ ﷺ وقال: "أشيروا عليّ أيّها النّاس".

ولمّا نزلَ المسلمون إلى موقعِ المعركة، جاء الحبّابُ بن المنذر إلى الرّسول ﷺ وقال له: يا رسول الله أهذا منزلٌ أنزلك الله إيّاه أم الحربُ والخديعة؟ فأجاب الرّسول ﷺ بل الحربُ والخديعة، فقال: فإذن يا رسول الله أنا أخبَرُ بها، فدعنا نذهب، وليكنْ البئرُ من ورائنا، وأعطاه خطةً مُحكمةً، فاستجاب له الرّسول ﷺ وغيَّر الجيش كلّه بناءً على خطة الحبّاب.

بل إنّ النّبيّ ﷺ شاورَ أصحابَه مرّةً أخرى في معركةِ أُحُد، إذ كان رأي الرّسول ﷺ البقاءُ في المدينة والتحصُّنُ بها، وعدمُ الخروجِ إلى جبلِ أُحُد، لكنَّ رجال المسلمين كانوا مُتحمّسينَ كثيرًا للقتالِ في سبيل الله، وأكثَرُوا على النّبيّ ﷺ حتى لبس لئمتَه (وهو ما يلبسه المقاتل إذا قاتل)، ونزلَ على رأي الصّحابة، على الرّغم من أنّه كان قد رأى رؤيا أنّ سيفَه فيه ثُلمة(أي: قد كُسِر)،وأنّ بقرةً تُذبَح، وأنّ يده تدخلُ في درعٍ حصينةٍ، فأوّلَها النّبيّ ﷺ أنّ أحَدَ أهلِ بيته سيموت، أو أنّ المسلمين سيصابون في مَقتل، وأنّ درعَهم الحصينةَ هي المدينة.

فلمّا رأَوا هذا قالوا: لعلنا استكرهنا رسول الله (أي حملناه على ما يكره)، أي: يا رسول الله نتراجعُ عن رأينا ولا نخرج، فقال ﷺ: «أَلَا إِنَّهُ لَيْسَ لِنَبِيٍّ إِذَا لَبِسَ لَأْمَتَهُ أَنْ يَضَعَهَا حَتَّى يُقَاتِلَ»[٧].

وقد جاءت بعضُ آياتِ سورةِ آلِ عِمران تتحدّثُ عن ذلك الموقفِ الذي سبق معركةَ أحد، وتعلّمَ الرّسول ﷺ ضرورةَ التّوكّل على الله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحمَةٍ مِنَ اللهِ لِنتَ لهم ۖ ولَو كنْتَ فَظًّا غَلِيظَ القَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ۖ فاعْفُ

[٧] أخرجه أحمد في سننه، وصحح إسناده ابن حجر في تغليق التعليق.

عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾(آل عمران: ١٥٩).

فلم يأمرِ اللهُ تعالى نبيّه -بعد تلك المشورةِ- أن يكُفّ عنها، فالشُّورى ضروريّةٌ مهما كانت النّتائج، وهي أدعى لوحدةِ الصّف، ولذلك قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَاصْبِرُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾(الأنفال: ٤٦).

يقول اللهُ عزّ وجلّ عن قلوبِ الصّحابةِ لمّا قال لهم النّبيّ ﷺ سنلاقي هذه الحربَ في بدر، وكانوا قد خرجوا لمجرّدِ اغتنامِ القافلةِ فقط: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ (٥) يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ(٦) وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ (٧) لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾(الأنفال: ٥-٨).

وللشّورى فوائدُ أخرى؛ فمثلًا: قُبيل معركةِ بدرٍ كانت ثُلّةٌ من المسلمين رافضةً للقتال وكارهةً له، واعترضوا بدايةً على القتال، فلمّا أكثر الرّسولُ ﷺ من الشّورى أمام تلك الثّلّةِ اقتنعوا بالقتال، وبالفعل لم يتخلّفْ أي رجلٍ عن رسول الله ﷺ في ذلك اليوم العظيم.

كما أنّ الله تعالى عظّم شأنَ الشّورى بين المسلمين، وسمّى بها إحدى سورِ القرآن الكريم، ولمْ يفصلِ الله تعالى بين الصّلاة والزّكاة في كلِّ القرآن، فقد ذكرهما متلازمتين، إلّا في سورةِ الشّورى، فقد فصلَ بينهما ووسّطها بين ركنين عظيمين من أركان الإسلام، يقول جل جلاله: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (الشّورى: ٣٨).

- الوقفةُ السّادسة: اعِدلْ حتّى في أصعبِ الظّروف:

روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما اصطفّ الجمعان للقتال، وهذا شيءٌ لم يكن موجودًا عند العرب حينئذٍ، حيث كان القتال عندهم كرٌّ وفرٌّ.

"إنّ الرّسول ﷺ عدَّلَ صفوفَ أصحابِه يومَ بدرٍ وفي يدِه قِدْحٌ [القِدح: قطعةٌ من الخشب تُعرَّض قليلًا وتُسوَّى] يعدِّلُ به القومَ، فمرَّ بسوادِ بنِ غَزِيَّةَ حليفَ بني عدي بنِ النَّجارِ وهو مُستنتِلٌ من الصفِّ [أي: خارجٌ عن أصحابه]، فطعن في بطنِه بالقدحِ وقال استوِ يا سوادُ فقال يا رسولَ اللهِ أوجَعْتَني وقد بعثك اللهُ بالحقِّ والعدلِ

فأقِدْني [أي: مكّنّي من الاقتصاص لنفسي]، قال: فكشف رسولُ اللهِ ﷺ عن بطنِه وقال: استقِدْ [أي: اِقتص]، قال فاعتنقَه فقبَّل بطنَه، فقال ﷺ: ما حملكَ على هذا يا سوادُ؟ قال: يا رسولَ اللهِ حضَر ما ترى فأردتُ أن يكون آخرُ العهدِ بك أن يمَسَّ جلدي جلدَك، فدعا له رسولُ اللهِ ﷺ بخيرٍ وقال له: استوِ يا سوادُ ".[8]

فسوادُ لم يردِ القصاصَ أبدًا من رسول الله ﷺ، بل أرادَ أن يمسَّ جلدَه جلدَ النّبيّ الكريم ﷺ قبل أن يدركَه الموت. لكنِ الشّاهد من القصّة عَدْلُ الرّسول ﷺ الذي لم يتردّدْ لحظةً في إقامةِ الحقِّ حتّى في دقائقِ الأمور، ولم يؤجّلْ ذلك إلى ما بعد المعركة، وفي هذا درسٌ عظيمٌ في الوقوفِ عند الحقوق مهما كانت الظّروف.

- الوقفةُ السّابعة: اعقِلْ وتوَكَّلْ:

إنّ الإنسانَ مُطالَبٌ بتحكيمِ عقلِه الذي وهبه إيّاهُ الخالقُ عزّ وجلّ، والأخذِ بالأسباب، ثمّ التّوكّلِ على مُسَبِّب الأسباب.

وسورةُ الأنفال سورةٌ من كتابِ اللهِ العزيز تعجُّ بمواقفَ عديدة حول أخْذ الرّسول ﷺ بالأسباب، منها:

العيونُ التي أرسلها ﷺ لمعرفةِ تفاصيلِ القافلة، والتّشاورُ، والدّعاءُ، وتسويةُ صفوفِ المقاتلين... ولم يكن غافلًا عن أيِّ تفصيلٍ، ولم يَدَعِ الوقتَ يمرُّ دون استثماره، وفي هذا درسٌ يُدَرَّس للشّباب الحائر، فلا ترضَ أن تعيشَ حياة الغافلين، ولْتعلمْ أنّه من أحبِّ الأمورِ على أعداءِ الدّين أن تكونَ غارقًا في سُباتٍ عميقٍ.

- الوقفةُ الثّامنة: لا تستَهِنْ بالدّعاء:

إنّ الدّعاء من أقوى ما خَلَقَ الله تعالى، فقد جعله سبحانه وتعالى أقوى حتّى من أقداره، وذكرنا -في بداية المحاضرة- أنّ الرّسول ﷺ دعا على كفّارِ قريش في السّنة الرّابعة للبعثة، فقال:

"اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِقُرَيْشٍ، اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِقُرَيْشٍ، اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِقُرَيْشٍ» لِأَبِي جَهْلِ بْنِ هِشَامٍ، وَعُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ، وَشَيْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ، وَالوَلِيدِ بْنِ عُتْبَةَ، وَأُبَيِّ بْنِ خَلَفٍ، وَعُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ ."[9].

وجاءتِ الإجابةُ بعد ما يقارب عشرَ سنوات، في السّنة الثّانيةِ للهجرة، فدعا عليهم في السّنة الرّابعة من البعثة، وتحققتِ الإجابة في السّنة الثّانية للهجرة، عندما صُرِعوا في بدرٍ، وأنجزَ الله عزّ وجلّ لنبيّه ﷺ ما وعده.

---

[8] أخرجه أشياخ من قوم حِبّان في السّلسلة الصّحيحة، وحسّنه الألباني.

[9] أخرجه البخاري في صحيحه.

لذلك لمّا انتهتِ المعركة، ولمّا رأى النبي ﷺ بعينه أبا جهل وهو مضرّجٌ بدمائه، هلّل وحَمَدَ وكبَّر، وكان هذا دأبُه بعد الانتهاء من أيِّ غزوةٍ أو حجٍّ أو عمرة.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ إِذَا قَفَلَ مِنْ غَزْوٍ أَوْ حَجٍّ أَوْ عُمْرَةٍ، يُكَبِّرُ عَلَى كُلِّ شَرَفٍ مِنَ الْأَرْضِ ثَلَاثَ تَكْبِيرَاتٍ، ثُمَّ يَقُولُ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، آيِبُونَ تَائِبُونَ عَابِدُونَ سَاجِدُونَ لِرَبِّنَا حَامِدُونَ، صَدَقَ اللَّهُ وَعْدَهُ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ، وَهَزَمَ الأَحْزَابَ وَحْدَهُ"[10].

وفي ليلة معركة بدرٍ رفع الرسول ﷺ يديه داعيًا ربَّه بتلك المعركة غير المتكافئة، دعا بكل تضرّع وانكسارٍ لربه القوي:

"اللهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي، اللهُمَّ آتِ مَا وَعَدْتَنِي، اللهُمَّ إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةَ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ لَا تُعْبَدْ فِي الْأَرْضِ»، فَمَا زَالَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ، مَادًّا يَدَيْهِ مُسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةِ، حَتَّى سَقَطَ رِدَاؤُهُ عَنْ مَنْكِبَيْهِ، فَأَتَاهُ أَبُو بَكْرٍ فَأَخَذَ رِدَاءَهُ، فَأَلْقَاهُ عَلَى مَنْكِبَيْهِ، ثُمَّ الْتَزَمَهُ مِنْ وَرَائِهِ، وَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللهِ، كَفَاكَ مُنَاشَدَتُكَ رَبَّكَ، فَإِنَّهُ سَيُنْجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ"[11].

فلا تستهِن بالدعاء، واقصدْ ربّك دومًا، وادْعُه بكل يقينٍ بقدرته العظيمة.

- الوقفةُ التّاسعة: الشّجاعة والبطولة:

هي وقفةٌ نأخذها من قولِ سعدِ بن معاذ للرّسول ﷺ: "صِلْ حبلَ منْ شئتَ، واقطعْ منْ شئتَ، وخُضْ بنا ما شئت".

لا يقول هذه الكلمات إلّا قلبٌ شجاع، ولا يقولها إلّا قلبٌ فدى رسولَه ﷺ بمالِه ونفسِه، ولذلك كانت له هذه المكانة في الإسلام.

كما أنّ شبابَ المسلمين الذين في مُقتَبل أعمارهم سطَّروا أروعَ البطولاتِ في تلكَ المعركة، فعن عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ: "إِنِّي لَفِي الصَّفِّ يَوْمَ بَدْرٍ إِذِ التَفَتُّ فَإِذَا عَنْ يَمِينِي وَعَنْ يَسَارِي فَتَيَانِ حَدِيثَا السِّنِّ، فَكَأَنِّي لَمْ آمَنْ بِمَكَانِهِمَا، إِذْ قَالَ لِي أَحَدُهُمَا سِرًّا مِنْ صَاحِبِهِ: يَا عَمِّ أَرِنِي أَبَا جَهْلٍ، فَقُلْتُ: يَا ابْنَ أَخِي، وَمَا تَصْنَعُ بِهِ؟ قَالَ: عَاهَدْتُ اللَّهَ إِنْ رَأَيْتُهُ

---

[10] أخرجه البخاري في صحيحه.

[11] أخرجه مسلم في صحيحه.

أنْ أَقْتُلَهُ أَوْ أَمُوتَ دُونَهُ، فَقالَ لي الآخَرُ سِرًّا مِنْ صَاحِبِهِ مِثْلَهُ، قالَ: فَمَا سَرَّنِي أنِّي بَيْنَ رَجُلَيْنِ مَكانَهُمَا، فأشَرْتُ لَهُمَا إلَيْهِ، فَشَدَّا عَلَيْهِ مِثْلَ الصَّقْرَيْنِ حَتَّى ضَرَبَاهُ، وَهُمَا ابْنَا عَفْرَاءَ"[١٢].

ويقولُ عبدُ الرّحمن بنُ عوف -رضي الله عنه-: فبينما نحن في الصّفِّ إذ غمزني أحدُهم وقال: يا عمّ هل تعرفُ أبا جهل؟ فقلتُ: نعم، وما حاجتُك إليه يا بن أخي؟ قال: أُخبِرتُ أنه يسبُّ رسول الله ﷺ ، والذي نفسي بيدِه لئن رأيتُه لا يفارقُ سوادي سوادَه (أي لا يفارقُ ظلّي ظلّهُ) حتّى أقتلَه، فقلتُ له: إنْ رأيتُه غمزتُ لك. يقول ابنُ عوف: فغمزني الثّاني من جنبي وقال: يا عمّ؟ قلت له: نعم، قال: تعرفُ أبا جهل؟ فقلتُ: وما حاجتُك به؟ قال: عرفته وبلَغني أنه يسبُّ رسول الله ﷺ-فهؤلاء من الأنصار ولم تسبق لهم رؤية أبي جهل، وعبد الرحمن بن عوف مهاجري من أهل مكة فيعرفه- يقول: فلمّا انطلقتِ المعركة، وهم بجانبَيّ مَرَّ أبو جهل فقلت: دونَكم الذي تطلبانِه، يقول: فانطلقَا كالنّسْرَين، هذا عن يمينِه وهذا عن يسارِه، فلم يجاوزاه حتّى قتلاه.

ففرعونُ هذهِ الأمّةِ أبو جهلٍ المتغطرسُ قُتِلَ على يدَيِّ غلامين من الأنصار صغيرَي السّنّ، هما: معاذ ومعوذ ابنا عفراء، فَسَلِمَتْ الأمّ، وسَلِم البيت الذي يربّي أبناءَه مثل تلك التّربية، يقول الشّاعر أبو العلاء المَعرّي:

وينشأُ ناشِئُ الفِتيانِ مِنّا ... على ما كانَ عَوَّدَهُ أَبوهُ

وما دانَ الفَتى بِحِجىً وَلَكِن ... يُعلّمه التَدَيُّنَ أَقرَبوهُ

ولهذا فإنّ كثيرًا من الذين سطّروا الملاحمَ في عصرِنا الحديثِ ضدَّ أعداءِ الله عزّ وجلّ في فلسطينَ وسورية واليمن وغيرها، وغالبيّةُ هؤلاء من مواليدِ هذه الألفيّة، ونحن نقول عنهم شبابَ الهشاشةِ النفسيّةِ والاكتئاب، والفرقُ شاسعٌ بينهم وبين الذين يتراقصون ويسكرون... فهؤلاء لن ينفعوا أمّةَ الإسلامِ شيئا، وانطلاقًا من هذه الفوارقِ شبّهَ النّبيُّ ﷺ هذه الأمّةَ بالمطر، وبيّن وجهَ التّشبيه، وهو أنّه لا يُعلمُ هل النفعُ في أوّلِ المطرِ، وبه يحصل الزرعُ وامتلاءُ العيون والآبار ونحوها، أم آخرُه؟ فكذلك أمّتُه صلى الله عليه وسلم لا يُعلم هل يكون النّفعُ في أوّلِها أم آخرِها:

عن أنسِ بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: "مَثَلُ أمتي مَثَلُ المطر لا يُدرى أولُه خيرٌ أم آخرُه "[١٣].

ومن المواقفِ الشّجاعةِ التي تُدرّس في معركةِ بدر موقفُ المقدادِ بن الأسود -كما ذكرنا- فعن طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ، قالَ: سَمِعْتُ ابْنَ مَسْعُودٍ، يَقُولُ: شَهِدْتُ مِنَ المِقْدَادِ بْنِ الأسْوَدِ مَشْهَدًا، لَأَنْ أكُونَ صَاحِبَهُ أحَبُّ إلَيَّ مِمَّا عُدِلَ بِهِ، أتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهو يَدْعُو علَى المُشْرِكِينَ، فَقالَ: لا نَقُولُ كما قالَ قَوْمُ مُوسَى: اذْهَبْ أنْتَ وَرَبُّكَ

---

[١٢] أخرجه البخاري في صحيحه.

[١٣] أخرجه التّرمذي في سننه.

فَقَاتِلَا، وَلَكِنَّا نُقَاتِلُ عَنْ يَمِينِكَ، وَعَنْ شِمَالِكَ، وَبَيْنَ يَدَيْكَ وَخَلْفَكَ «فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَشْرَقَ وَجْهُهُ وَسَرَّهُ"[١٤].

هكذا هي النَّفس التّوّاقةُ من الدّاخل، النفسُ الشّجاعةُ، هي التي تصنعُ الفارقَ للأمّةِ جمعاء، ولذلك فإنّ المسلمين لم يكونوا متخاذلينَ كاليهودِ الذين تخاذلوا جدًّا مع نبيهّم الكريم موسى -عليه السلام- فتوّههم الله تعالى أربعين سنةً عقابًا على تخاذلهم.

ومن الشّجاعة -أيضًا- ما قاله عليُّ بنُ أبي طالب -رضي الله عنه- عن رسول الله ﷺ عندما نشبتِ المعركة، حيث قال ﷺ: "لَا يُقَدِّمَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ إِلَى شَيْءٍ حَتَّى أَكُونَ أَنَا دُونَهُ"[١٥]، فلم يرضَ ﷺ إلّا أن يكونَ في المقدّمة، فلم يجبُن، فيقول عليٌّ -رضي الله عنه-: "كنّا إذا اشتدّ الوطيسُ وحَميتِ الحربُ نلوذُ برسول الله ﷺ، والشّديدُ منّا للذي يحاذيه".

فالنّبيّ ﷺ كان فارسًا شجاعًا مثلما كان رحيمًا شفيقًا بأمّته.

والكثيرُ من الصّحابة -رِضوان الله عليهم- كانوا أولي بأسٍ شديدٍ، وحبّذا لو أذكر -هنا- بيتًا من الشّعر لعليٍّ بن أبي طالبٍ -رضي الله عنه- يصف شجاعته:

أنا الذي سمّتني أمّي حيدرَة   كبيتِ غاباتٍ كريهِ المنظره

فعليُّ بنُ أبي طالبٍ فارسٌ من فرسان قريش وهو الذي يقول: "كنّا إذا اشتدَّ الوطيسُ نلوذُ برسول الله صلى الله عليه وسلم"، يعني يذهبونَ وراءَه.

ومن أولئك الشّجعان؛ عُميرُ بنُ الحمام رضي الله عنه الرّجلُ الذي قال للرّسول ﷺ إنّه يرجو أنْ يكونَ من أهلِ الجنّةِ عندما بشّرَهم الرّسول ﷺ بالجنّة، وهم مصطفّون للحرب، وكانت معه ثلاثُ تمراتٍ يتقوّى بها -ولعلّها زادُه طَوال اليوم- فقال: "لئنْ عشتُ حتّى آكلَ هذه التمرات، إنّها لحياةٌ طويلة"، فرمى بالتّمرات وذهبَ وانغمسَ وقاتلَ حتّى قُتِل، وماتَ شهيدًا في تلك المعركة.

وعن أنس رضي الله عنه :"... فَدَنَا الْمُشْرِكُونَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قُومُوا إِلَى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ»، قَالَ: - يَقُولُ عُمَيْرُ بْنُ الْحُمَامِ الْأَنْصَارِيُّ: - يَا رَسُولَ اللهِ، جَنَّةٌ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ؟ قَالَ:

---

[١٤] أخرجه البخاري في صحيحه.

[١٥] أخرجه مسلم في صحيحه.

«نَعَمْ»، قَالَ: بَخٍ بَخٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا يَحْمِلُكَ عَلَى قَوْلِكَ بَخٍ بَخٍ؟» قَالَ: لَا وَاللهِ يَا رَسُولَ اللّهِ، إِلَّا رَجَاءَةَ أَنْ أَكُونَ مِنْ أَهْلِهَا، قَالَ: «فَإِنَّكَ مِنْ أَهْلِهَا"[١٦]

إذن هذا التّاريخ، وهذا المجد لا يكتبُه الضّعفاء ولا المنهزمون، ولذلك يجبُ أن نربّي أنفسنا، ونربّي أطفالَنا، ونربّي بناتِنا، ونربّي مَنْ حولنا على الشّجاعة، فهذا الدّين لا يحملُه إلّا القويُّ المتين، ولا بدّ لك أنْ تكونَ شجاعًا؛ لأنّك إنْ كنت جبانًا ضعيفًا فلن تصلحَ لك الدّنيا ولا الآخرة.

- الوقفةُ العاشرة: لا يغلبُ عسرٌ يُسرَين:

لقد كان المسلمونَ في موقعةِ بدرٍ قليلي العدد، لا يملكونَ من الخيل إلّا اثنين، ومؤونتُهم شبهُ معدومة، فاستغاثوا بربِّهم الغنيّ، فأرسل لهم المددَ، وأنزلَ ملائكتَه يقاتلون معهم، يقول عزّ وجلّ: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ (١٢٤) بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ (آل عمران: ١٢٤-١٢٥).

ويومَها نظرَ الرّسول ﷺ إلى السّماء، ورأى ما لم يرهُ أحدٌ من البشر، وبشّر صحبَه بمجيء الملائكة، وقد وردتْ رواياتٌ كثيرةٌ بهذا الصّدد، منها:

١- عن ابْنُ عَبَّاسٍ، قَالَ: بَيْنَمَا رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَئِذٍ يَشْتَدُّ فِي أَثَرِ رَجُلٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ أَمَامَهُ، إِذْ سَمِعَ ضَرْبَةً بِالسَّوْطِ فَوْقَهُ وَصَوْتَ الْفَارِسِ يَقُولُ: أَقْدِمْ حَيْزُومُ [حَيزوم: اسم ملك من الملائكة]، فَنَظَرَ إِلَى الْمُشْرِكِ أَمَامَهُ فَخَرَّ مُسْتَلْقِيًا، فَنَظَرَ إِلَيْهِ فَإِذَا هُوَ قَدْ خُطِمَ أَنْفُهُ، وَشُقَّ وَجْهُهُ، كَضَرْبَةِ السَّوْطِ فَاخْضَرَّ ذَلِكَ أَجْمَعُ، فَجَاءَ الْأَنْصَارِيُّ، فَحَدَّثَ بِذَلِكَ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: "صَدَقْتَ، ذَلِكَ مِنْ مَدَدِ السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ"[١٧].

---

[١٦] أخرجه مسلم في صحيحه.

[١٧] أخرجه مسلم في صحيحه.

٢- وكان الَّذي أسَرَ العبَّاسَ بنَ عبدِ المُطَّلِبِ أبو اليَسَرِ بنُ عَمرٍو، وهو كَعبُ بنُ عَمرٍو، أحدُ بَني سَلَمةَ، فقال له رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: كيف أسَرتَه يا أبا اليَسَرِ؟ قال: لقد أعانَني عليه رَجُلٌ ما رأيتُه بَعدُ، ولا قَبلُ، هَيئَتُه كذا، هَيئتُه كذا، قال: فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: لقد أعانَكَ عليه مَلَكٌ كَريمٌ ..."[١٨].

فخذْها -أخي المسلم- قاعدةً طَوال حياتك: إنّه على قدَرِ المؤونةِ تأتي المعونة، وعلى قدرِ الجهد يأتي المَدَد، ولا يجمعُ الله على عبدٍ عسرين:

قال الله عزَ وجلَ: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ (الشّرح: ٥-٦).

فقط اتخذِ الخطوةَ الأولى، واقتربْ لو قَدَرَ شبرٍ، ولن يخذلَك الله تعالى أبدًا إن شاء.

- الوقفةُ الحاديةَ عشرةَ: ابذلْ، ولو قليلًا:

إنّ اللهَ تعالى يباركُ بالجهدِ القليل، فعندما رأى النّبيُّ ﷺ صفوفَ المشركين، أخذ حفنةً من التّراب، ورماها بوجوهِ الكفّار:

"... أنّ رسولَ الله ﷺ نَزَلَ عَنِ الْبَغْلَةِ، ثُمَّ قَبَضَ قَبْضَةً مِنْ تُرَابِ مِنَ الْأَرْضِ، ثُمَّ اسْتَقْبَلَ بِهِ وُجُوهَهُمْ، فَقَالَ: «شَاهَتِ الْوُجُوهُ"[١٩]، فتساءلَ الصّحابةُ فيما بينهم عن فائدتِها مع وجودِ مسافةٍ بينه وبينهم، لكنّ الله عزّ وجلّ أمرَ بحملِ تلك الرّمال إليهم حتّى لم يبقَ من صفوفِهم أحدٌ إلّا ودخلتْ حبّاتُها في عينيه، فيقول الله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (الأنفال: ١٧).

فهناك أشياء كثيرةٌ لا تُؤتى بالجهد أو التخطيطِ الأرضي، بل بمددٍ سماويٍّ، وهذا مبدأٌ عظيمٌ، فمهما كانت قدراتُك قليلةً؛ تحفظُ حديثًا واحدًا؟ كرّره، تتصدّق بمبلغٍ بسيطٍ؟ داومْ عليه... فاللهُ يبارك لك، ويُوسِع لك.

---

[١٨] أخرجه أحمد في مسنده، وحسّنه شعيب الأرناؤوط.

[١٩] أخرجه مسلم في صحيحه.

- <u>الوقفةُ الثانية عشرة: الخيرةُ فيما اختارَه اللّه:</u>

إنّ الله عزّ وجلّ إذا أراد شيئًا هيّأ أسبابَه، وقد قلتُ -في بداية المحاضرة- أنّ الرّسولَ ﷺ لم يخترِ المعركة، وكذلك المشركون، بل سيقتْ الأحداثُ كما اقتضتْها حكمةُ الله تعالى، وعلى الرّغم من أنّ الظروفَ كانت مُعقّدةً، وعلى الرّغم من أنّ فريقًا من المؤمنين كان كارهًا -كما أسلفتُ- للقتال، وهذا الفريق يودّ أن يغتنمَ القافلة بلا قتال، إلّا أنّ الرّسولَ ﷺ لم يفِرَّ من الزّحف، وأخذَ قرارَ حمايةِ الإسلام، واثقًا بأنّ اختيارَ اللهِ تعالى لهذا الأمر هو عينُ الخيريّة، وهو إحقاقُ الإسلام وإعلاءُ شأنِه بقتالِ أعدائه وكسرِ شوكتِهم، يقول عزّ وجلّ: ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ (٧) لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ (الأنفال: ٧-٨).

وإنّ تحقيقَ ذلك الخيرِ العظيم للمسلمين في ذلك اليوم العظيم، لم تكن لتوقفَه أيُّ قدرةٍ ما دام اللهُ قدّره، فما لبثَ الطّرفان إلّا أن وجدا نفسيهما وجهًا لوجهٍ، ولو تواعدا لمَا نجحَ موعدهُما بهذه الدّقّة، يقول عزّ وجلّ: ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ (الأنفال:٤٢).

- <u>الوقفةُ الثّالثة عشرة: رابطةُ العقيدة:</u>

إنّ رابطةَ العقيدة التي تربط المسلمين ببعضهم من أقوى الرّوابط على الإطلاق، فتأمّلِ الموقفَ التّالي:

عن عائشةَ رضي الله عنها، قالت: "خَرَجَ رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليه وسلّمَ إلى بَدرٍ، حتى إذا كان بحَرَّةِ الوَبَرةِ [وهي منطقة تقع غربيّ المدينة المنورّة] أدركَه رَجُلٌ ذو جُرأةٍ ونَجدةٍ [أي شجاعة]، فلمَّا رَآه أصحابُ رسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليه وسلّمَ فَرِحوا به وأعجَبَهم، فقال: يا مُحمَّدُ، أخرُجُ معكَ فأُقاتِلُ وأُصيبُ، فقال رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليه وسلَّمَ: أتُؤمِنُ باللهِ عزَّ وجلَّ ورسولِه؟، قال: لا، قال: فارجِعْ؛ فلن نَستعينَ بمُشرِكٍ، فمَضى رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليه وسلَّمَ، حتى إذا كان بذي الحُلَيفةِ [الحُلَيفة: قرية قريبة من المدينة المنوّرة] أدرَكَه، فأعجَبَ ذلك أصحابَ رسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فقالوا: هذا فُلانٌ قد رَجَعَ، فقال: يا مُحمَّدُ، أخرُجُ معكَ فأُقاتِلُ وأُصيبُ، فقال: أتُؤمِنُ باللهِ عزَّ وجلَّ ورسولِه؟ قال: لا، قال: فارجِعْ؛ فلن نَستعينَ بمُشرِكٍ، فمَضى رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليه وسلَّمَ، حتى إذا كان بظَهرِ البَيْداءِ [أي: في الصحراء] لَحِقَه أيضًا، فأعجَبَ ذلك أصحابَ رسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فقال: يا مُحمَّدُ، أخرُجُ معكَ فأُقاتِلُ وأُصيبُ، فقال: أتُؤمِنُ باللهِ عزَّ وجلَّ ورسولِه؟ قال: نَعَمْ، قال: فنَعَمْ إذَنْ "[٢٠].

---

[٢٠] تخريج مُشكل الأحاديث، وصحّحه شُعيب الأرناؤوط.

فالرّسول ﷺ لم يقبلْ إشراكَ الرّجلِ في القتالِ رغمَ قوّتِه ومهارته، مع أنّه يشتركُ معهم باللّغة والدّمِ والجنس، لكنّه ينقطعُ عنهم برباطِ العقيدةِ الذي يتقدّمُ على كلِّ الرّوابط.

وهذه الرّابطةُ هي التي جعلتِ الرّجالَ المسلمين يقفون ضدَّ آبائهم وإخوانهم وأبناءِ عمومتهم، لأنّهم اعتبروا أعداءَ اللهِ أعداءً لهم، ولذلك قال الله عزّ وجلّ عنهم: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾ (المجادلة: ٢٢).

- الوقفةُ الرّابعةَ عشرة: شَرَفُ البدايات:

لقد جعلَ الله تعالى لأهلِ بدرٍ مكانةً عظيمةً استمرّت طوالَ الحياة وبعد الممات، واعلمْ أنّ الله تعالى لا ينسى الوقفةَ الأولى، فخذْ درسًا من الرّجال الذين شهدوا بدرًا، منهم:

١ - الحارثةُ بن سُراقة، وهو أحدُ الشّهداء الأربعة عشر الذين استُشهدوا ببدرٍ:

حَدَّثَنَا أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ أَنَّ أُمَّ الرُّبَيِّعِ بِنْتَ البَرَاءِ وَهِيَ أُمُّ حَارِثَةَ بْنِ سُرَاقَةَ أَتَتِ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَتْ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، أَلَا تُحَدِّثُنِي عَنْ حَارِثَةَ، وَكَانَ قُتِلَ يَوْمَ بَدْرٍ أَصَابَهُ سَهْمٌ غَرْبٌ [أي: سهمٌ لا يعرف راميه]، فَإِنْ كَانَ فِي الجَنَّةِ صَبَرْتُ، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ، اجْتَهَدْتُ عَلَيْهِ فِي البُكَاءِ، قَالَ: «يَا أُمَّ حَارِثَةَ إِنَّهَا جِنَانٌ فِي الجَنَّةِ، وَإِنَّ ابْنَكِ أَصَابَ الفِرْدَوْسَ الأَعْلَى"[٢١]

قال الإمامُ ابن كثير الدّمشقيّ -رحمه الله- مُعلّقًا على هذا الحديث : "لم يكنْ حارثة في بحبحةِ القتال، ولا في حَومة الوغى، بل كان من النّظارة -أي: كان في الخلف يعمل على إمدادِ مقدّمةِ الجيش، وليس الأمر بخطورةِ الخطِّ الأماميّ- وإنّما أصابَه سهمُ غرب وهو يشرب من الحرب -أي: لم يكن يقاتل- فكيف بمن كان في ساحةِ الوغى؟ وكيف بمن قُتِل شهيدًا وهو مُقبِلٌ غير مُدبِرٍ؟ "

[٢١] أخرجه البخاري في صحيحه.

فعلى كلِّ مسلمٍ أن يحظى بشرفِ البدايات في أيِّ أمرٍ من أمورِ الحقِّ، وأنْ يكونَ مِفتاحًا للخير مِغلاقًا للشرّ في بيته وفي مجتمعه، وألّا يتردّدَ في أخذِ القراراتِ الصّائبة.

عن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِنَّ مِنَ النَّاسِ مَفَاتِيحَ لِلْخَيْرِ، مَغَالِيقَ لِلشَّرِّ، وَإِنَّ مِنَ النَّاسِ مَفَاتِيحَ لِلشَّرِّ مَغَالِيقَ لِلْخَيْرِ، فَطُوبَى لِمَنْ جَعَلَ اللَّهُ مَفَاتِيحَ الْخَيْرِ عَلَى يَدَيْهِ، وَوَيْلٌ لِمَنْ جَعَلَ اللَّهُ مَفَاتِيحَ الشَّرِّ عَلَى يَدَيْهِ"[٢٢].

فهؤلاء الأوائلُ هم الذين لا ينسى لهم الله تعالى وقفتهم الأولى.

٢- ابنُ أبي بَلْتَعَة، وله قصةٌ وقعتْ قُبيل صلحِ الحُديبية، وصلحُ الحديبية في السّنةِ السّادسة للهجرة، ومعركةُ بدر في السّنة الثّانية للهجرة.

جاءتْ امرأةٌ تُسمّى (سارة) وهي جاريةٌ عند أبي عمرٍو بن هاشم الذي ينتمي إلى عبد منافٍ قومِ رسول الله ﷺ - وكانتْ مُغنّيةً ونائحةً- جاءت إلى النّبيّ ﷺ في المدينة فتذكّرها ﷺ لأنّها جاريةٌ عند قومه، فسألها: أمُسلمةً جئتِ؟ قالت: لا، ثم سألَها: أمهاجرةً جئتِ؟ قالت: لا، قال: لِمَ إذًا؟ قالت: أتتني إليكم الحاجة، وأنتم كنتم الموالي والأصلَ والعشيرة، ذهبتم فانقطع منّي كلّ شيء، فسألها ﷺ: أين أنتِ من فتيانِ مكّةَ؟ قالت: منذ كانت وقعةَ بدرٍ ما طلبَ منهم أحدٌ شيئًا، فأمر النّبيّ ﷺ بني هاشم ممّن كانوا في المدينة أن يكرموها، فأكرموها وأعطوها راحلةً وثيابًا ونفقةً، ثم عادتْ إلى مكّة، وبعدها جاء الوحيُ لرسول الله ﷺ، فنادى الرّسول ﷺ على عليِّ بن أبي طالب وأبي مَرثد الغنوي والزّبير بن العوّام، وطلبَ منهم أن يذهبوا إلى روضةِ (خاخ)، وهي مكانٌ في طريقِ العودة من المدينةِ إلى مكّة، وأنْ يجدوا امرأةً ظعينةً (أي مسافرةً على ناقة)، وأنْ يُفتِّشوها فإنّ معها كتابًا - رسالةً- فإنْ أعطتكم الكتابَ فخلّوا سبيلها، وإنْ رفضتْ فاضربوا عنقَها، فلمّا وصلوا روضةَ (خاخ) وجدوها -وهي سارةُ الجاريةُ التي أكرموها وهي مشركةٌ- وطلب عليّ كرّم الله وجهَه منها الكتاب، فأنكرتْ، فسلَّ عليّ سيفه وهدّدها بقطعِ عنقِها، فأخرجتِ الكتابَ من عِقاصها (أي: من لُفافةِ غطاء رأسها) فأخذوه، وخلّوا سبيلَها، وقد كُتب فيه: "من حاطبِ بن أبي بلتَعة إلى أهلِ مكّةَ: أُحذّرُكم رسولَ الله فإنّه يريدكم"، وسببُ هذا الكتاب أنّ رسول الله ﷺ كان يخطّطُ لفتح مكّة، وكانت هذه خطّةٌ سرّيّة، ولم يُطلِعْ رسول الله ﷺ عليها إلّا قِلّةً قليلةً من أصحابه، ومن بينهم حاطب.

وجاؤوا بالرّسالةِ إلى النّبيّ ﷺ، فطلب النّبيُّ ﷺ حاطبًا، وسأله: ما حمَلَكَ على هذا يا حاطب؟ قال حاطب: لا تعجلْ عليَّ يا رسول الله، إنّي كنتُ امرأً مُلصَقًا بقريش -فقد كان أصلُه من اليمن- ولم أكنْ من أنفُسِها، (أي: لم يكن من

---

[٢٢] أخرجه ابن ماجه في سننه، وحسّنه الألباني.

أهلها الأصليين) وكان مَن معكَ من المهاجرين لهم قراباتٌ، يحمون بها أهليهم وأموالهم بمكة، فأحببتُ إذ فاتني ذلك من النسب أنْ أصطنعَ إليهم يدًا، (أي يفعل مع قريش فعلًا يحمي به أمّه وإخوته بمكة) وعلمتُ أنّ رسالتي لا تقدِّمُ ولا تؤخِّر من القضاءِ والقدر شيئًا، وما ارتدْتُ منذ آمنتُ، ولا غشَشْتُكَ منذ نصحتُكَ، واللهُ يشهد، فقال الرّسول ﷺ: صَدَقَ حاطبٌ، قال عمر بن الخطاب -وكان موجودًا-: يا رسول الله ائذنْ لي أضربْ عنقَ هذا المنافق؟ فالتفتَ الرّسول ﷺ وقال: "أَلَيْسَ مِنْ أَهْلِ بَدْرٍ! لَعَلَّ اللَّهَ اطَّلَعَ إِلَى أَهْلِ بَدْرٍ؟ فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ، فَقَدْ وَجَبَتْ لَكُمُ الجَنَّةُ".

وصدّقه رسولُ الله ﷺ والصّحابة.

والحديث المُثبِت لهذه القصّة: "عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبَا مَرْثَدٍ الغَنَوِيَّ، وَالزُّبَيْرَ بْنَ العَوَّامِ، وَكُلُّنَا فَارِسٌ، قَالَ: «انْطَلِقُوا حَتَّى تَأْتُوا رَوْضَةَ خَاخٍ، فَإِنَّ بِهَا امْرَأَةً مِنَ المُشْرِكِينَ، مَعَهَا كِتَابٌ مِنْ حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ إِلَى المُشْرِكِينَ» فَأَدْرَكْنَاهَا تَسِيرُ عَلَى بَعِيرٍ لَهَا، حَيْثُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقُلْنَا: الكِتَابُ، فَقَالَتْ: مَا مَعَنَا كِتَابٌ، فَأَنَخْنَاهَا فَالْتَمَسْنَا فَلَمْ نَرَ كِتَابًا، فَقُلْنَا: مَا كَذَبَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لَتُخْرِجِنَّ الكِتَابَ أَوْ لَنُجَرِّدَنَّكِ، فَلَمَّا رَأَتِ الجِدَّ أَهْوَتِ الى حُجْزَتِهَا، وَهِيَ مُحْتَجِزَةٌ بِكِسَاءٍ، فَأَخْرَجَتْهُ، فَانْطَلَقْنَا بِهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَدْ خَانَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالمُؤْمِنِينَ، فَدَعْنِي فَلِأَضْرِبَ عُنُقَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ» قَالَ حَاطِبٌ: وَاللَّهِ مَا بِي أَنْ لاَ أَكُونَ مُؤْمِنًا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَرَدْتُ أَنْ يَكُونَ لِي عِنْدَ القَوْمِ يَدٌ يَدْفَعُ اللَّهُ بِهَا عَنْ أَهْلِي وَمَالِي، وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِكَ إِلَّا لَهُ هُنَاكَ مِنْ عَشِيرَتِهِ مَنْ يَدْفَعُ اللَّهُ بِهِ عَنْ أَهْلِهِ وَمَالِهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «صَدَقَ وَلاَ تَقُولُوا لَهُ إِلَّا خَيْرًا» فَقَالَ عُمَرُ: إِنَّهُ قَدْ خَانَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالمُؤْمِنِينَ، فَدَعْنِي فَلِأَضْرِبَ عُنُقَهُ، فَقَالَ: "أَلَيْسَ مِنْ أَهْلِ بَدْرٍ؟» فَقَالَ: " لَعَلَّ اللَّهَ اطَّلَعَ إِلَى أَهْلِ بَدْرٍ؟ فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ، فَقَدْ وَجَبَتْ لَكُمُ الجَنَّةُ، أَوْ: فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ "، فَدَمَعَتْ عَيْنَا عُمَرَ، وَقَالَ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ "[٢٣].

لقد أخطأ حاطبٌ خطأً عظيمًا من حيث لم يقصِد، وخطؤُه يُسمّى في عُرْف السّياسات الدّولية (خيانةً عظمى)، لكنّ اللّه تعالى غفرَ له ذلك؛ بسبب وقفته الأولى، وبسبب إسلامه وإيمانه في وقت الشّدّة والضّعف، لأنّه أخذ خطوةً أولى نحو معركةٍ في سبيلِ نصرةِ دينِ الله عزّ وجلّ، ونحو معركةٍ غير متكافئةٍ لا يظنُّ من يدخلها إلّا أنّه سيُقتَل، لأنّه حمل روحه على كفنه وجعلها فداءً لدين الله العظيم.

وقصّةُ حاطب هذه سببٌ لنزول سورة الممتحنة، فقد أشارَ الله عزّ وجلّ إليه في أول آيةٍ منها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا

---

[٢٣] أخرجه البخاري في صحيحه.

أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾(الممتحنة: ١).

فلمّا سمعها حاطبٌ فرِح بها كثيرًا لأنه شُمِلَ بـ (الذين آمنوا).

وهذا درسٌ عظيمٌ، فكن دائمًا في الصّدارة بالحق، ونَلْ شرف البدايات، ولا تكن مع الفئةِ القويّة إنْ كانت الغلبةُ لها في المجتمع، ولا تساندها لتحمي نفسك، بل لُذْ بحمى القويّ الذي لا يُقهَر، كن مع الله الجبّارِ حتّى في أضعفِ ظروفك، فإنّ هذا الضعف امتحانٌ من الله الحكيم لصمود عباده وصمود إيمانهم... وإنّنا بحاجةٍ ماسّةٍ لمثل هذا اليقين في عصرنا الحالي في ظلِّ اتّحادِ الكفّار على المسلمين في فلسطين وغيرها من بلاد الإسلام المُستضعَفة.

فإلى كلِّ المتأخّرين، والمتردّدين في اللّحاق بركب الأوائل: لا تدَعوا الخير في كلِّ أماكنه وأزمانه، واكسبوا سباقَ القلوب المطمئنة.

وأسأل الله تعالى أن يغفرَ للمهاجرينَ والأنصارِ الذين أُخرجوا من ديارهم يبتغون فضلًا ورِضوانًا من ربّهم، وأسأل الله أن يرحمَ الأنصار الذين تبوّأوا الدّار والإيمان من قبلهم، ويحبّون من هاجر إليهم، وأسألُ الله تعالى أن يجعلَنا من الذين جاؤوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا في الإيمان ولا تجعلْ في قلوبنا غِلاً للذين آمنوا ربّنا إنّك رؤوفٌ رحيمٌ.

والحمد لله ربِّ العالمين، والصّلاةُ والسّلام على سيّد المرسلين، نبيِّنا مُحمَّدٍ، وعلى آله وصحبه أجمعين.

تنويه: مادة المحاضرة جمعت من مصادر عدة وجميع المحاضرات في المدونة ليست كتابة حرفية لما ورد في المحاضرة؛ إنما تمت إعادة صياغتها لتُناسب القرّاء وبما لا يُخلُّ بروح المحاضرة ومعانيها

.